

ملاحم اللسانيات الوصفية الغربية في الدرس اللغوي العربي الحديث

طالب دكتوراه لمين زايدي

جامعة محمد خيضر بسكرة-الجزائر

البريد الإلكتروني: zaidif40zaidif40@gmail.com

رقم الهاتف 0671142759

ملخص البحث

رقة البحثية قضية مهمة طرحها اللسانيون العرب المحدثين ألا هي إشكالية تطبيق المنهج الوصفي ذو المبادئ الغربية على المدونة اللغوية العربية، حيث عرف تطبيق المنهج الوصفي على التراكيب اللغوية العربية، العديد من الملاحظات من قبل النقاد اللسانيين، من بساطة في التطبيق، ورغم هذه الانتقادات إلا أن هذه المحاولة الجادة تعتبر منعرجاً هاماً من أجل حل بعض المشاكل التي وتعاني من اللسانيات العربية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: المنهج الوصفي، اللسانيات، اللسانيات العربية، الاستقراء، التعقيد.

Abstract:

This paper dealt with an important issue raised by the modern Arab linguists, namely the problematic application of the descriptive method with Western principles on the Arabic language code. However, this serious attempt is an important divergence to solve some of the problems that suffer from modern Arab linguistics.

Keywords: Descriptive Method, Linguistics, Arabic Linguistics, Induction, Complexity.

**مقدمة:**

الوصف هو المنهج الذي يعتمد على دراسة الظاهرة كما توجد في الواقع، ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً ويعتبر عنها كيفية بوصفها وبيان خصائصها، وكمياً بإعطائها وصفاً رقمياً من خلال أرقام وجداول توضح مقدار هذه الظاهرة أو حجمها أو درجة ارتباطها مع الظواهر الأخرى.

وهو عملية تُقدّم بها المادة العلمية كما هي. ولذلك فإنه يكون في نهاية المطاف عبارة عن دليل علمي. فالمنهج الوصفي إذن يقوم على استقراء المواد العلمية التي تخدم إشكالا ما أو قضية ما وعرضها عرضا مرتبا ترتيبا منهجيا، وقد يكون الوصف تعبيريا فيسمى "العرض"، أو يكون رمزيا فيسمى التشفير. وهو أيضا يقوم على الظواهر الطبيعية أو الاجتماعي واللساني وصفها لها، للوصول بذلك إلى إثبات الحقائق العلمية. والمنهج الوصفي مكمل لمنهج الاسترداد التاريخي الذي يصف الظواهر في تطورها الماضي حتى يصل بها إلى الوقت الحاضر.

ولهذا يكاد المنهج الوصفي يشمل كافة المناهج الأخرى باستثناء المنهجين التاريخي والتجريبي، ذلك لأن عملية الوصف والتحليل للظواهر تكاد تكون مسألة مشتركة وموجودة في كافة أنواع البحوث العلمية. والباحث اللساني حينما يستخدم المنهج الوصفي، لا يقوم بحصر الظواهر ووصفها جميعها، وإنما يقوم بانتقاء الظواهر التي تخدم غرضه من الدراسة ثم يصفها ليتوصل بذلك إلى إثبات الحقيقة العلمية. كما لعب المنهج الوصفي دوراً كبيراً في ضبط الدراسات اللسانية العربية بشكل جيد وأصبحت دراستهم تتميز بالدقة والنتائج المنطقية. ومما سبق يمكننا طرح الإشكالية التالية: ما هو الدور الذي يلعبه المنهج الوصفي في الدراسات اللسانية العربية؟ وتتفرع عن الإشكالية مجموعة من التساؤلات نذكر منها: ما هو تعريف المنهج الوصفي؟

وما أسسه النظرية ؟

وكيف دخل المنهج الوصفي الدراسات العربية القديمة والحديثة؟

وكيف يساهم المنهج الوصفي في ترقية البحث اللساني العربي؟

أولاً : علم اللسانيات الوصفية.

يبحث علم اللسانيات الوصفية بالدراسة العلمية لغة واحدة أو لهجة واحدة في زمن بعينه ومكان بعينه، ومعنى هذا أن علم اللسانيات الوصفية تبحث في المستوي اللغوي الواحد من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية. وقد أطلق دي سوسير على علم اللسانيات الوصفية: (سانكرونى: (synchronic) ومعناه: علم اللغة التزامني¹. "فاللسانيات

الأنية تدرس أية لغة من اللغات على حدة دراسة وصفية في حالة معينة أي في نقطة زمنية معينة².

وقد أطلق على (علم اللغة الوصفي) مصطلح آخر هو (علم اللغة التركيبي). والمنهج الوصفي هو الذي يسود الآن في علم اللغة الحديث، لأن المظهر التزامني للغة المنتمي إلى جماعة المتكلمين هو الذي يمثل، وحده الحقيقة الواقع لكل نشاط لغوي³.

ثانياً: المنهج الوصفي.

قبل تعريف المنهج الوصفي ينبغي التفريق بين النحو التقليدي القائم على أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية وبين النحو الوصفي، فالأول يحدد قواعد اللغة بناء على (فهم المعنى) أولاً ومعنى ذلك أن القواعد تتحد وفقاً لدارس نفسه أي أنه قائم على أساس ذاتي.

أما النحو الوصفي فهو يقيم تحليله التركيبي للغة على أساس ارتباط الظاهرة بالظواهر الأخرى وليس على ارتباطها بالدارس نفسه أي **منهج علمي موضوعي**⁴.

إذن **المنهج الوصفي** يعني "بوصف اللغة من حيث هي تنظيم قائم بذاته وهو المنهج

الذي يوصف في علم اللغة بأنه علم ساكن، يصف اللغة كما هي في نقطة زمنية معينة وليس ضرورياً أن تكون في الزمن الحاضر"⁵.

وهذا ما فعله النحاة العرب القدامى وينبغي بأن نشير هنا إلى أن أول ما يبدأ به اللغوي المتتبع للمنهج الوصفي هو الملاحظة التي تنقسم أقساماً عديدة حسب المعيار

المعتمد ونقتصر هنا على ما كان له وجود في الدرس النحوي العربي وهي⁶.

- **الملاحظة المباشرة**: قبل وصف شيء ما لا بد من إلقاء نظرة متمعنة عليه لنعرف

مميزاته فنذكرها في وصفنا له فالملاحظة المباشرة هي تلك الملاحظة التي يلتجأ فيها

إلى التجارب ولا تستخدم فيها الأجهزة بل يعتمد الباحث في وصفه للظواهر اللغوية على حواسه وقواه العقلية.

- **الملاحظة المباشرة في الدرس النحوي العربي**: تنقسم الملاحظة المباشرة باعتبار نوع

الظواهر التي تعالجها إلى قسمين:

الملاحظة الصوتية؛ الملاحظة الدلالية

ونجد أن هذين النوعين من الملاحظة لهما حضور في الدرس النحوي العربي
فالملاحظة

الصوتية مستعملة في دراسة الأصوات العربية ومثال ذلك ما لاحظته سيبويه
بأن هناك صيغا

كثيرة لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء المعايير الصوتية مثل: ظاهرة الإدغام أما
الملاحظة

الدلالية متعلقة بدراسة الجانب المعجمي للألفاظ وما يطرأ عليهما من تغيرات
دلالية.

ثالثاً: أسس المنهج الوصفي.

للمنهج الوصفي أسس عامة تنوزعها أفكار تنظيمية للمنهج وقواعد علمية في
التحليل منها

أن الوصف لأي لغة لابد أن يبدأ من الصورة المنطوقة إلى المكتوبة ومن
خلال هذا

التحديد نطرح السؤال الآتي: ما هي أهم الأسس التي يقوم عليها المنهج
الوصفي؟

1/ تحديد المكان:

قام اللغويون والنحاة بصياغة قواعدهم واستدلالاتهم بناء على أقوال العرب
الموثوق في

لغتهم فاحتجوا بأقوالهم واستشهدوا بشواهدهم فجعل العلماء حدًا مكانيا فقالوا: لا
يؤخذ إلا

بكلام الفصحاء الموثوق بعربيتهم وضبطوا ذلك بأن لا يؤخذ إلا بكلام القبائل
التي سكنت

قلب جزيرة العرب فيؤخذ من قریش وهم أجود العرب وتميم وقيس وأسد ثم
هذيل وبعض

كنانة، وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملية لم يؤخذ
عن حضري قط ولا عن سكان البراري المجاورين للأمم الأخرى⁷.

2/ تحديد الزمان

ارتضى العلماء الأخذ عن فصحاء العرب حتى نهاية القرن الثاني الهجري
أما بالنسبة

لفصحاء البادية فقد أجاز العلماء الأخذ عنهم حتى منتصف القرن الرابع الهجري⁸ فهذا التحديد للزمان والمكان إجراء علمي متفق مع المنهج الوصفي، مطابق في اللسانيات لما يسمى بالدراسة الآتية للغة.

3/ مستوى الأداء

لا تتباين اللغة باختلاف الزمان والمكان بل تتنوع بحسب طرائق الأداء التي يسلكها المتكلمون بها فالنحو العربي لم يقعد للعربية كلها وإنما قعد لعربية مخصوصة تتمثل في مستوى معين من الكلام، وهو في الأغلب يكون شعرا أو نثرا أو أمثال وبهذا نجد أنهم درجوا الكلام العربي إلى درجات وهذا ما نراه في كتاب سيبويه فالكلام عنده **جيد بليغ أو عربي أو جائر أو قبيح** وينبغي الإشارة إلى أن الوصفين يقررون أن هناك مستويات مختلفة من الكلام وأن لكل مستوى نظامه وقوانينه⁹.

رابعاً: خطوات المنهج الوصفي .

من ضمن الخطوات التي يتبعها هذا المنهج مايلي:

1/ الاستقراء:

يقوم الوصف دراسته على معطيات لغوية مستعملة فعلا، ويتم ذلك بالاتصال المباشر والسماع من أفواههم، فاللغوي يسمع ويدون ما يسمع¹⁰ ، فالسماع من أهم المبادئ التي اعتمد عليها **المنهج البصري** في تقعيد النحو غير أن طريقة العلماء في جمعهم للمادة اللغوية نبعاً من مصادرها للاستشهاد بها لم تسم **بالاستقراء** بل أطلق عليها مصطلح **السماع** ويكون ذلك عن طريق تلقي النصوص من أفواه الرواة ومشاهدة الأعراب والنقل عنهم مما مهد إلى استقراء اللغة واستنباط القواعد نتيجة لهذا الاستقراء.

فهاهو سيبويه يستقري من القرآن الكريم وكلام العرب ثم يستنبط من هذا الاستقراء نماذج لغوية¹¹.

2/ التصنيف :

هو الخطوة التالية للاستقراء ويعني تقسيم المادة اللغوية وجمع ما يتوافق منها في الشكل أو في الوظيفة وجعلها قسماً بذاته ثم تسميته باسم معين، ومثال ذلك في التراث العربي هو تصنيفهم للشواهد اللغوية المختلفة وينبغي التأكيد على أن تصنيفهم للشواهد لا يقتصر على الشواهد الصرفية والنحوية فحسب بل نجده في الشواهد الصوتية كذلك¹².

ومثال بدأت أولى خطوات وضع القواعد النحوية بم رحلة جمع اللغة التي اعتمد فيها التصنيف ما فعله سيبويه في تقسيم الكلام إلى : اسم وفعل وحر¹³.

3/التقعيد

العلماء على السماع مباشرة من أفواه العرب وكذلك على القياس على اعتبار أنهما الأداة التي من خلالها تم استقراء لغة العرب وتقنينها، ثم بعد ذلك جاءت مرحلة فحص وتمحيص المجموع اللغوي وبدأت خطوات وضع القواعد النحوية لأنه لا يمكن القيام بوضع القواعد من دون مادة توضع تحت تصرف النحوي¹⁴.

وبعد استقراء النحاة العرب لما ورد لهم من نصوص اللغة اتخذوا مما كثر شيوعه مقياساً يؤسسون عليه القاعدة ويستنبطون منه الصحيح المقبول¹⁵.

خامساً: مظاهر المنهج الوصفي في التراث اللغوي العربي.

1/الاتصال بالواقع اللغوي

من الخطوات المنهجية التي التزم بها اللغويون العرب في جمع مدونتهم هو الاتصال المباشر بالواقع اللغوي لوصف اللغة الحية المنطوقة المستعملة فعلاً، وخروجهم من حلاقتهم النظرية إلى الميدان ونزولهم إلى البوادي والأسواق ومقابلتهم الغلاظ الجفاة من الأعراب لأخذ المادة اللغوية من عندهم¹⁶ فهي أبو عمرو ابن العلا كان حريصاً على معرفة الصورة الواقعية للكلام كما ينطقها أهل البادية، فقد كان أبو عمرو ابن العلا تشبته عليه كلمة فرجة أهي بفتح الفاء أم بضمها وكان هارباً من الحجاج حتى ألقى أعربياً. في الصحراء ينطقها بالفتح ف رجة ويخبره عن موت الحجاج ، فقال " فما أدري بأيهما كنت . أشد فرحاً بقوله فرجة أم بقوله : مات الحجاج " ¹⁷. ولم تقتصر هذه الطريقة على الأئمة الكبار في القرن الثاني بل استمرت في القرنين الثالث والرابع ، ويمثل ابن جني(ت 392 في ذلك اتجاهها واضحاً، إذ تبرز في كتبه ظاهرة جمع

المادة عن طريق الاتصال المباشر بالمصدر البشري ومن ذلك ما يروي عن لقائه مع ابن

عبد الله الشجري " وسألته يوماً فقلت له : كيف تجمع دكاناً؟ فقال : دكاكين، فقلت : فسرحانا؟

قال : سراحين، فقلت : ففرطانا؟ قال : قرطين، فقلت : فعثمان؟ قال : عثمانون، فقلت له : هلاً

قلت أيضا عثمانين؟ قال: أيش عثمانين! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبدا¹⁸.

نجد إذن أنّ مثل هذا الصنيع قد حث عليه أصحاب المنهج اللساني الحديث لأن النظرية اللسانية الحديثة تتجه إلى الإنسان صاحب اللغة أو ما يطلق عليه المتكلم السامع في مجتمع لغوي متجانس، يعرف لغته ويمثلها تمثيلا صحيحا أي أنهم قاموا بدراسته اللغة كما هي في الواقع.
- النحاة الأوائل كانوا يتناولون الظواهر اللغوية على أساس شكلي وهو من أهم مبادئ

المنهج الوصفي بحيث يعني بالظاهر أكثر من عنايته بما هو خلف ذلك¹⁹.
- منهج البحث في مدرسة الكوفة في بداية نشأتها كان أقرب للمنهج الوصفي، وذلك

لاعتمادهم على المسموع حيث عملوا على استنباط القواعد من نصوص القرآن والأدب ومثال ذلك حين سئل الكسائي "في مجلس يونس بن حبيب عن قولهم لأضربن أيّ هم يقوم، لما لا يقال: لأضربن أيّ هم؟ فقال أيّ هكذا خلقت"²⁰.

فعبارة أيّ هنا هي جوهر المنهج الوصفي.
- العمل الذي قام به الأسود الدولي في ضبط النص القرآني كان عملا وصفيا محضا

لأنه قائم على الملاحظة المباشرة لقراءة النص، وذلك من خلال وضع رموز تصور الحركة.

2/الرجوع إلى العرب عند الاختلاف

ومما يثبت أن النحاة كانوا يتبعون منهاجا وصفيا أنهم يقرّرون ما أثبتته الاستعمال فإذا اختلف النحاة حول قضية ما رجعوا إلى الأعراب ليحكموا بينهم وخير دليل على ذلك المناظرة المعروفة بالمسألة الزنبورية²¹.

3/النصوص الواردة في كتاب سيبويه: المتخصص لكتاب سيبويه يجده مليئا بعبارات دالة

على أنه لم يزد عن وصف كلام العرب فهو يقرر مباشرة أن الأحكام إنما تجري على كلام العرب²². وفي هذا نجد عبارات مثل: "فاستحسن من هذا ما استحسن العرب وأجزه كما أجازته"²³ ومن خلال هذا يظهر أن ما قرره سيبويه من أحكام ليس تأويلا أو تقديرا وإنما كان فيه. ما هو وصفي تقريري محض أي أنه أقام قواعده على الاستعمال وقوله أيضا: "فهذا أمر النكرة وهذا أمر المعرفة فأجره كما أجره ووضع كل شيء موضعه"²⁴. وكذلك قوله في باب الإضافة للجمع "وإن أضفت إلى عبايد قلت: عبايدي لأنه ليس له واحد وواحد يكون على فعلول أو فعليل أو فعالل فإذا لم يكن له واحد لم تجاوزه حتى تعلم؛ فهذا أقوى من أن أحدث شيئا لم تتكلم به العرب"²⁵. من خلال هذا نلاحظ أن سيبويه ملتزم بالدراسة الآنية للغة العربية، ويرى أن إثبات ما تكلمت به العرب وسمع منها أقوى من أن يحدث شيئا لم تتكلم به العرب أي يصف اللغة كما هي.

سادساً: المنهج الوصفي في الدراسات اللسانية الحديثة.

إن الخطاب اللساني الذي تعكسه الكتابات اللغوية الوصفية تستند نظريا ومنهجيا إلى المبادئ التي قدمتها اللسانيات في مختلف اتجاهاتها الأوروبية والأمريكية ومنذ مطلع القرن العشرين، حيث أن اللسانيين العرب الذين درسوا اللسانيات بفروعها المتنوعة في جامعات أمريكا وأوروبا حالوا تطبيق ما درسوه على اللغة العربية²⁶.

ولم تظهر إرهابات المنهج الوصفي في الثقافة العربية إلا بعدما شرع بعض أفراد البعثات الطلابية في العودة إلى بلادهم، ويؤرخ لهذه البداية بعودة إبراهيم أنيس، وقد ساد هذا الاتجاه وترسخ في الثقافة العربية بفضل الجهود التي أعقبت إبراهيم أنيس والتي عرفت أبرز تجلياتها في جهود تلاميذته، وجهود بعض العائدين الجدد²⁷.

1/المنهج الوصفي واللغة العربية.

تتلخص السمات التي تميز بها تطبيق المنهج الوصفي على اللغة العربية في النقاط التالية:

• التطبيق الجزئي:

"تقتصر الكتابة الوصفية مجال اهتمامها على بعض القضايا الجزئية، وهذا ما يجعل الجهود موزعة، مما يحول دون تحقيق نتائج، ولذلك فعلى الرغم من مرور أزيد من نصف قرن على ظهور المنهج الوصفي لا تتوفر اللغة العربية على أي تحليل وصفي شمولي لبنائها، ولا حتى على تحليل البنيوي المتكامل لأحد مستوياتها"²⁸.
أي على الرغم من الزمن الطويل لظهور المنهج الوصفي فاللسانيات العربية وقفت عاجزة ولم تستطع تحليل المدونات اللغوية العربية تحليلا وصفيا شاملا.

• من التبسيط إلى السطحية.

فضلا عن تعامل الكتابة الوصفية اللسانية العربية مع مبادئ اللسانيات العامة بالتبسيط، اتسم تعاملها مع القضايا العربية-من الناحية الوصفية-بكثير من السطحية بسبب انعدام التحليل الوصفي العميق وعدم التعمق في سبر أغوار بنيات اللغة العربية²⁹.
وهذا ما تكشف عنه المتابعة الدقيقة لكتابة الوصفيين أمثال أنيس فريحة، وتمام حسان ،وعبد الرحمان أيوب، وريمون طحان.

• أي تحليل جديد للغة العربية؟

تلجأ الكتابة اللسانية الوصفية للتراث اللغوي العربي مستلهمة منه جملة من المفاهيم والمصطلحات بل حتى التصورات، قد ظل التحليل الوصفي للنظام العربي الصرفي محتفظا بالتسميات الموروثة عن الفكر اللغوي القديم مثل الماضي والمضارع والأمر وبالرغم من كثرة الشكوى من المصطلح القديم بسبب دلالاته الملتبسة وعدم شموليته³⁰.

• أي وصف للغة العربية؟

إذ كانت الوصفية العربية تتخذ من المنهج الوصفي منطلقا، فإن الملاحظ أنها لم تتقيد بخطوات هذا المنهج، فمن المعروف أن التحليل الوصفي يبدأ بتحديد اصطلاح على تسميته بالمتن باعتباره مادة البحث اللساني. ويتعلق الأمر بجمع النصوص المنطوقة أو المكتوبة أو هما

معاً، ويشترط فيه نوعاً من التجانس والتمثيلية والتحديد الزماني والمكاني للغة الموضوع لوصف.

إن كتاباتنا الوصية لا تأخذ بعين الاعتبار هذا الأساس المنهجي الهام في التحليل الوصفي. إن الكتابة الوصفية العربية تتحدث عن تحليل اللغة العربية، لكنها لا تحدد منهجياً هذه اللغة العربية التي تنطق منها³¹.

● الكتابة الوصفية والنحو العربي.

من بين الهفوات التي سقط فيها الوصفيون العرب في نقدهم للنحو العربي يمكن تلخيصها فيما يلي:³²

1/ إنه نقد لم يكن قائماً على رؤية منهجية أو نظرية أو شاملة للفكر اللغوي العربي القديم، وإنما يتعلق الأمر بملاحظات متفرقة تحاكي في حالات عديدة ما ورد في الفكر الغربي من نقد للنحو الغربي التقليدي.

2/ إن نقد النحو العربي لم يكون نقداً موضوعياً، بقدر ما كان دفاعاً عن المنهج الوصفي ووسيلة لتبرير اللجوء إليه.

3/ وقوف الكتابة الوصفية العربية عند حدود النقد، دون أن تتمكن من تقديم نظرية لسانية بديلة للنحو العربي القديم أو حتى تبلور وتنمي الأفكار اللغوية القديمة.

4/ إنه نقد عجز عن دحض الأطروحات التقليدية. بحيث ظلت الأفكار اللغوية القديمة عي السائدة، واستمر الفكر النحوي العربي مصدراً أساسياً لكثير من الكتابات الوصفية العربية التي اعتمدت بوعي أو دواعي تصورات القدماء ومصطلحاتهم ومفاهيمهم في أسلوب جديد.

2/ الوصفية العربية بين الأشكال والفضاءات.

يرى اللسانيين العرب أن الوصف هو مهمة اللساني الأولى، فالتفكير اللساني في العصر الحديث تفكير وصفي، وقد اتسم بموضوعية البحث لأن اللسانيين اقتصروا بأن يكونوا وصافين للظواهر اللغوية لا مفلسين لها. والموضوعية في تصور اللسانيين العرب هي سمة العلم المضبوط، وهي تعني ارتباط التفكير بسلوك الظواهر الخاضعة للملاحظة، بحيث أن طبيعة الموضوع المدروس هي التي تتحكم في الدراسة من دون الاعتماد على ميول الذات الباحثة ولا عواطفها آرائها الشخصية ومعتقداتها³³.

فكان من الطبيعي أن تستقل اللغة بمنهجها الخاص وهي دعوة كل اللسانيين، منذ أن عرفت الدراسات اللغوية المنحى الوصفي الذي ساد كل أنواع العلوم. يقول تمام حسان: وإذا نظرنا إلى اللغة باعتبارها مجموعة من النظم

الاجتماعية ذات أقسام من الأنماط والعلامات وجدنا أن من الممكن أن تستقل بمنهجها عن مناهج العلوم³⁴ من هنا كانت الرغبة، كما يقول ملحمة في تخلص منهج اللغة حتى يسلم لقارئ نص في اللغة وللغة غير معتمد أسسا من خارجها³⁵.

فاللغة إذن موضوع للوصف والملاحظة، فهي نظام أو مثل ما سماها تمام حسان منظمة

ضخمة من الأجهزة المتكاملة والمنسجمة التي تعمل كلها في اتجاه واحد. ولذا، يركز تمام حسان في دعوته إلى الوصفية على الشكل والوظيفة، لكونهما أساسين من أسس بناء المنهج الوصفي يطبقان في كل فرع من فروع الدراسة اللسانية ويقول ونستطيع أن نسمي هذا المنهج شكليا أو وظيفيا أما عبد الرحمن أيوب، فيربط الوصفية بالتحليل الشكلي لا الوظيفي، وهو في ذلك، ينيع زمرة اللسانيين الذين ربطوا الوصفية بالمنهج الشكلي حتى أصبحت تعني، عندهم، التحليل الشكلي للغة بعيدا عن المعنى خصوصا في العقد السادس من القرن الحالي حيث أصبحت الشكالية والتحليل الشكلي على المستوى النحوي من أصول علم اللغة الوصفي³⁶.

ويقول د عبد الرحمن أيوب، إن المدرسة الشكالية ترى أن تدرس اللغة لا من جهة دلالة الألفاظ، بل من جهة أشكالها، وهي بذلك تكفي بتقرير الواقع لا غير، ويرى أنه لا بد لنا، عند دراسة الكلمات وأنواعها من الاعتماد على شكلها لا على دلالتها³⁷.

3/ نحو نظرية عربية وصفية للغة العربية

ولأجل إصلاح الوضع أصرّ اللسانيون المحدثون على إعادة وصف اللغة العربية ونقد النظرية النحوية، التي شكلت إحدى مقولاتهم اللسانية، التي اعتبرت مقدمة منهجية للسانيات العربية، وفاضل للانتقال إلى مرحلة جديدة تعنى بتطبيق المناهج الحديثة على اللغة العربية، تحاول من خلالها إثبات وجودها في الساحة اللغوية بدعوتها إلى تطبيق الوصفية على الدرس اللغوي العربي، فكانت هذه المحاولة ثورة فكرية، أحس بها عبد الرحمان أيوب خلال تجربته قائلاً في هذا الصدد "إنني أشعر من ناحية أخرى أن هذه المحاولة تمهيد ضروري لثورة عقلية لا بد من نضوجها قبل أن يفتح الجيل الجديد إلى البحث اللغوي الموضوعي"³⁸. أي أن هذه التجربة الجديدة هي محاولة جادة من اللغويين العرب المحدثين لوصف اللغة العربية ولكن باستخدام النظريات القادمة من أوروبا، ولا يكون ذلك إلى بتمحيص الأفكار القادمة من عند الغرب وأخذ ما يمكن أن يفيد لغتنا العربية.

إن هذا الوضع الغامض أدركه أيضاً تمام حسان، حيث حاول بدراسة اللغة العربية، وفي هذا يقول "لقد منيت الدراسات اللغوية العربية مدة طويلة بسمّة الصعوبة وأحيانا بسمعة التعقيد... ولعل نعت الدراسات العربية هذه النعوت إنما جاء لعدم التجديد في مناهجها فما ورثناه عن آبائنا لا يزال كما هو"³⁹. فكان من واجب اللغويين أن يعيدوا النظر في الدرس اللغوي العربي، وتخليصه من الشوائب العالقة به التي ترسخت في الأذهان وهيمنت على التفكير العربي كمقدسات يحرم على الدارس تحريفها أو تغييرها على اعتقاد إن ما جاء به التفكير اللغوي العربي الأول كاف وشاف، وهم بذلك يوهمون أنفسهم بالصحة والكمال

ومن خلال هذا تأتي "محاولة إعادة وصف اللغة العربية، كنتيجة حتمية لما اقترحه اللسانيون العرب من مقدمات نظرية"⁴⁰.

فقد حاول العرب إيجاد هيكل بنيوي لدراسة اللغة العربية، يستمد مقولاته من النظرية اللسانية الغربية من دون الاعتماد على نتائج النظرية اللغوية التقليدية، إذ يرى بعض الباحثين أن عملية إعادة وصف اللغة العربية قد خضع للغة الواصفة التي قدمتها النظرية النحوية العربية القديمة، حيث كانوا يستعملون مفاهيم تنتمي إلى اللغة الواصفة لنظرية النحو العربي كالحال والمبتدأ والخبر والفعل⁴¹، فاتجهت اللسانيات العربية وجهة توفيقية بين التراث اللغوي العربي، والدرس الغربي، لأن الدارس العربي ل يستطع التخلي عن موروثه اللغوي في عمله النقدي.

فرغم ارتباط هؤلاء بالتراث اللغوي إلا أن نقدهم للنظرية النحو العربي يبقى مربوطاً بالنظرية اللسانية الغربية، وهذا ما عني به قادة اللسانيات العرب، ومن بينهم تمام حسان الذي يقول "...فكرت في أمر الدراسات العربية القديمة من حيث المنهج لا من حيث التفاصيل وجعلت تفكيري في أمرها مستضيئاً بمناهج الدراسات اللغوية الحديثة"⁴²

فعملية نقد التراث ليست عملية سهلة لأنها نتاج لعملية تقويم الدرس العربي، وهذا ما تحسسه محمود سمران، إذ يرى أن نقد النحو عمل خطير وشاق، ورغم هذه الصعوبة إلا أن هناك من جازف، وقدم مبادرات تستحق التثمين، حيث حاولوا نقد التراث وإعادة وصف اللغة العربية، بتطبيق المنهج الوصفي على بنيتها لأنها من أشد اللغات حاجة إلى هذا الوصف الجديد، إذ أن نحوها يرجع اليوم إلى ما ينيف عن اثني عشر قرناً ولم يكده يعرف تغييراً جوهرياً منذ نشأته، أي أن قواعده

بحاجة إلى تجديد ما يخدم العصر والواقع الذي نعيشه حتى نعيد الدارس إلى بوتقة اللغة العربية، وإعادة غرس حب اللغة وقواعدها في قلبه⁴³.

3/ انتقادات الموجهة للكتابات الوصفية العربية الوصفية.

وقفنا في الكتابات الوصفية على جملة من الملاحظات أهمها:

أ. عدم تحديد المصادر والأسس النظرية والمفاهيم المنهجية توضيحاً كافياً.

ب. الانتقالية في التعامل مع النظريات اللسانية الوصفية

ج. السطحية في تداول المفاهيم والمبادئ اللسانية الوصفية.

ونفصل في هذه النقاط كما يلي

أ - عدم تحديد المصادر والأسس النظرية والمفاهيم المنهجية.

يتحدث الوصفيون عن الوصفية بإطلاق، دون اهتمام بتحديد الإطار النظري الذي تعتمده، وكان المسألة بذلك الواضح الذي يبدو في كتاباتهم فمن المعروف أن اللسانيات الوصفية أو البنيوية اتجاهات ومدارس متعددة تتفق في أمور وتختلف في أخرى، غير أن الدارسين العرب لا يهتمون بمسألة التحديد المضبوط لإطار النظري الذي يشتغلون فيه ويوظفونه في تعاملهم مع اللغة العربية. وهذا ما نلاحظه عند تمام حسان وعبد الرحمان أيوب وريمون طحان وغيرهم⁴⁴.

ب. الانتقالية في التعامل مع مبادئ اللسانيات.

إذ كان الوصفيون يتفقون على بعض الأسس النظرية، فإن الاختلاف قائم بينهم حول الكثير من المفاهيم، ويرجع ذلك إلى الاختلاف في بعض جوانب التحليل، فقد ركز البعض على الجانب الشكلي لمستويات التحليل اللغوي، بينما ركز البعض الآخر على الجانب الوظيفي وقد استتبع هذا الاختلاف اختلافاً آخر على كمستوى المفاهيم⁴⁵.

ج. من البساطة في التعامل إلى السطحية

يتعامل الوصفيون العرب مع المبادئ البنيوية بكثير من البساطة، حيث لا يتم عرضها بالشكل الذي يقتضيه البحث العلمي من عمق وضبط ودقة. فالكتابة اللسانية العربية الوصفية تتحاشى الدخول في التفاصيل والجزئيات، وكل ما له علاقة بالأمور الصورية المتعلقة بالمفاهيم والمبادئ المستعملة في التحليل اللساني. هذا ما جعل تحليلاتها عامة تفقد إلى الدقة المطلوبة⁴⁶.

فالكتابة الوصفية العربية فعلا لم تنطلق من طبيعة اللغة العربية في عملية الوصف هاته كما فعل اللسانيون الغربيون بل اكتفت بمحاولة التطبيق لبعض المفاهيم الوصفية الشائعة.

خاتمة:

في نهاية هذه الدراسة استطعنا أن نصل إلى جملة من النقاط نلخصها في ما يلي:

- ✓ أن المنهج الوصفي هو ذلك المنهج اللساني الذي يعنى بوصف اللغة باعتبارها نظام قائم بذاته، وهو الدراسة اللغوية للظواهر اللغوية في نقطة زمنية محددة.
- ✓ ومن أسس مقولة الوصف في إطارها المعرفي والمنهجي، حيث ارتبطت بإجراءات منهجية، من قبيل الاستقراء، والملاحظة، والتصنيف، والتعقيد.
- ✓ حاول الوصفيون العرب بكل ما يمتلكون من خزان معرفي صب الدرس اللغوي الغربي بسياقه المعرفي الخاص إلى سياق آخر لا يمت له بصلة، هو السياق الثقافي العربي.

الهوامش:

- ¹ ينظر، حاتم صالح الضامن، علم اللغة، المؤسسة اللبنانية، لبنان، ط2014، ص1، 127، 128.
- ² أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2005، ص2، 125.
- ³ ينظر، حاتم صالح الضامن، علم اللغة، ص128.
- ⁴ ينظر، عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ط1979م، ص46.
- ⁵ علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1986، ص11.
- ⁶ ينظر، علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، دار نهضة مصر لطباعة والنشر، مصر، ط9، 2001، ص35.
- ⁷ ينظر، تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، دار البيضاء المغرب، ط1994، ص14.
- ⁸ ينظر، محمود فهمي حجازي، أسس علم اللغة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ط2002، ص10.
- ⁹ ينظر، عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص49.

- 10 ينظر، صالح بلعيد، في المناهج اللغوية و إعداد الأبحاث، دار هومة، الجزائر، دط، 2004 ، ص5.
- 11 ينظر ،علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص14 ، 15.
- 12 ينظر، محمد عبد العزيز عبد الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام ، مصر، ط1، 2006 ص68 ، 69.
- 13 ينظر، عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، دار النهضة العربية لطباعة والنشر، بيروت، دط، 1980 ص15.
- 14 ينظر، أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط1988، 6، ص81.
- 15 ينظر، محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، دار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ص90.
- 16 ينظر، علي زوين، مناهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، ص14.
- 17 ينظر، عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص54.
- 18 أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص ، تح محمد على النجاعة المكتبة العلمية، دط، بيروت، دت، ج1 ، ص24.
- 19 ينظر، علي زوين، مناهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص15.
- 20 عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة، تح محمد أحمد جاد وآخرون، منشورات المكتبة العصرية، دط، 1986 م، ج1 ، ص373 .
- 21 ينظر، عبد الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، مرجع سابق، ص55.
- 22 ينظر، مرجع نفسه، ص59.
- 23 أبو بشير عمرو ابن سبويه، الكتاب، تح :عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ، بيروت ، ط3، 1988، ج2، ص69.
- 24 المرجع نفسه، ص114.
- 25 المرجع نفسه، ص379.
- 26 ينظر، مصطفى غلفان، اللسانيات العربية أسئلة المنهج، دار ورد، الأردن، ط2013، 1، ص60.
- 27 ينظر، حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة (دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته)، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط2009، 1، ص44.
- 28 حافظ إسماعيل علوي و امحمد الملاح، قضايا إستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان ، 2009، ص285.
- 29 المرجع السابق، ص286.
- 30 المرجع السابق، ص286.
- 31 المرجع نفسه، ص286.
- 32 المرجع نفسه، ص287.

- ³³ ينظر فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث دراسة في النشاط اللساني العربي، أتيرك للنشر والتوزيع، مصر، ط2004، 1، ص86.
- ³⁴ ينظر، تمام حسان، مناهج البحث اللغوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1985، 1، ص29.
- ³⁵ ينظر، المرجع نفسه ص152.
- ³⁶ ينظر، حلمي خليل، العربية و علم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي الحديث، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1988، ص29.
- ³⁷ ينظر، المرجع نفسه ص29.
- ³⁸ فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللساني العربي، ص99.
- ³⁹ نور الهدى لوثن، مباحث في اللغة ومناهج البحث، المكتبة الجامعية، مصر، دط، 2001، ص12.
- ⁴⁰ فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللساني العربي، ص99.
- ⁴¹ ينظر المرجع السابق، ص100.
- ⁴² تمام حسان، اللغة بين الوصفية والمعارية، عالم الكتب، القاهرة، ط2006، 1، ص03.
- ⁴³ ينظر، إيمان حشاني، جهود اللسانيين العرب في إعادة وصف اللغة العربية وظيفيا، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2012، ص63.
- ⁴⁴ ينظر، إسماعيل علوي و امحمد الملاخ، قضايا إستمولوجية في اللسانيات، ص284، 285.
- ⁴⁵ ينظر، المرجع نفسه، ص284.
- ⁴⁶ ينظر، المرجع السابق، ص285.